30 Surah Ar-Room

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور البقاعي

الجزء الخامس عشر

▲ سورة الروم

▲ تفسير الآيات رقم [1- 5]

{الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5)}

لما ختم سبحانه التي قبلها بأنه مع المحسنين قال: {الاما*} مشيراً بألف القيام والعلو ولام الوصلة وميم التمام إلى أن الملك الأعلى القيوم أرسل جبرائيل عليه الصلاة والسلام- الذي هو وصلة بينه وبين أنبيائه عليهم الصلاة والسلام- إلى أشرف خلقه محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق، يوحي إليه وحياً معلماً بالشاهد والغائب، فيأتي الأمر على ما أخبر به دليلاً على صحة رسالته، وكمال علم مرسله، وشمول قدرته، ووجوب وحدانيته.

ولما أشير في آخر تلك بأمر الحرم إلى أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء، وختم بمدح المجاهدين فيه، وأنه سبحانه لا يزال مع المحسنين، وكانت قد افتتحت بأمر المفتونين، فكان كأنه قيل: لنفتننكم ولنعمين المفتين ولنهدين المجاهدين، وكان أهل فارس قد انتصروا على الروم، ففرح المشركون وقالوا للمسلمين: قد انتصر إخواننا الأميون على إخوانكم أهل الكتاب، فلننتصرن عليكم، فأخبر الله تعالى بأن الأمر يكون على خلاف ما زعموا، فصدق مصدق وكذب مكذب، فكان في كل من ذلك من نصر أهل فارس وإخبار الله تعالى بإدالة الروم فتنة يعرف بها الثابت من المزلزل،

وكان من له كتاب أحسن حالاً في الجملة ممن لا كتاب له، افتتحت هذه بتفصيل ذلك تصريحاً بعد أن أشار إليه بالأحرف المقطعة تلويحاً غيباً وشهادة، دلالة على وحدانيته وإبطال الشرك، فأثبت سبحانه أن له جميع الأمر وأنه يسرُّ المؤمنين بنصرة من له دين صحيح الأصل، وخذلان أهل العراقة في الباطل والجهل، وجعل ذلك على وجه يفيد نصر المؤمنين على المشركين، فقال مبتدئاً بما أفهمه كونه مع المحسنين مع أنه ليس مع المسيئين : {غلبت الروم*} أي لتبديلهم دينهم غلبهم- الفرس في زمن أنوشروان أو بعده {في أدنى الأرض} أي أقرب أرضهم إلى أرضكم أيها العرب، وهي في أطراف الشام، وفي تعيين مكان الغلب- على هذا الوجه- بشارة للعرب بأنهم يغلبونهم إذا وافقوهم، فإن موافقتهم لهم تكون في مثل ذلك المكان. وقد كان كذلك بما كشف عنه الزمان، فكأنه تعالى يقول لمن فرح من العرب بنصر أهل فارس على الروم لنكاية المسلمين: اتركوا هذا السرور الذي لا يصوب نحوه من له همة الرجال، وأجمعوا أمركم وأجمعوا شملكم، لتواقعوهم في مثل هذا الوضع فتنتصروا عليهم، ثم لا يقاومونكم بعدها أبداً، فتغلبوا على بلادهم ومدنهم وحصونهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما أعتب سبحانه أهل مكة، ونفى عليهم قبح صنيعهم في التغافل عن الاعتبار بحالهم، وكونهم- مع قلة عددهم- قد منع الله بلدهم عن قاصد نهبه، وكف أيدي العتاة والمتمردين عنهم مع (تعاور) أيدى المنتهين على من حولهم، وتكرر ذلك واطراده صوناً منه تعالى لحرمه وبيته، فقال تعالى:

{أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم} [العنكبوت: 67] أي ولم يكفهم هذا في الاعتبار، وتبينوا أن ذلك ليس عن قوة منهم ولا حسن دفاع، وإنما هو بصـــــون الله إياهم بمجاورة بيته وملازمة أمنه مع أنهم أقل العرب، أفلا يرون هذه النعمة ويقابلونها بالشكر والاستجابة قبل أن يحل بهم نقمة، ويســــلبهم نعمه، فلما قدم تذكارهم بهذا، أعقب بذكر طائفة هم أكثر منهم وأشد قوة وأوسع بلاداً، وقد أيد عليهم غيرهم، ولم يغن عنهم انتشـارهم وكثرتهم، فقالت: {الم غلبت الروم في أدنى الأرض} الآيات، فذكر تعالى غلبة غيرهم لهم، وأنهم ستكون لهم كرة، ثم يغلبون، وما ذلك إلا بنصـر الله من شاء من عبيده {ينصر من يشاء} فلو كشف عن إبصار من كان بمكة من الكفار لرأوا أن اعتصام بلادهم وسلامة ذرياتهم وأولادهم مما سلط على من حولهم من الانتهاب والقتل وسبي الذراري والحرم إنما هو بمنع الله وكرم صونه لمن جاور حرمه وبيته، وإلا فالروم أكثر عدداً وأطول مدداً، ومع ذلك تتكرر عليهم الفتكات والغارات، وتتوالى عليهم الغلبات، أفلا يشكر أهل مكة من أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟ وأيضـاً فإنه سبحانه لما قال: {وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} [العنكبوت: 64] أتبع ذلك سبحانه بذكر تقلب حالها، وتبين اضمحلالها، وأنها لا تصفو ولا تتم، وإنما حالها أبداً التقلب وعدم الثبات، فأخبر بأمر هذه الطائفة التي هي من أكثر أهل الأرض وأمكنهم وهم الروم، وأنهم لا يزالون مرة عليهم وأخرى لهم، فأشــــبهت حالهم هذه حال اللهو واللعب، فوجب اعتبار العاقل بذلك وطلبه الحصــــول على تنعم دار لا ينقلب حالها، ولا يتوقع انقلابها

وزوالها، {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} ومما يقوي هذا المأخذ قوله تعالى «يعلمون» ظاهراً من الحياة الدنيا أي لو علموا باطنها لتحققوا أنها لهو ولعب ولعرفوا أمر الآخرة «من عرف نفسه عرف ربه» ومما يشهد لكل من المقصدين ويعضد كلا الأمرين قوله سبحانه: {أولم يسيروا في الأرض} الآيات، أي لو فعلوا هذا وتأملوا لشاهدوا من تقلب أحوال الأمم وتغير الأزمنة والقرون ما بين لهم عدم إبقائها على أحد فتحققوا لهوها ولعبها وعلموا أن حالهم سيؤول إلى حال من ارتكب مرتكبهم في العناد والتكذيب وسوء البياد والهلاك- انتهى.

ولما ابتدأ سبحانه بما أوجبه للروم من القهر بتبديلهم، معبراً عنهم بأداة التأنيث مناسبة لسفولهم، أتبعه ما صنعه معهم لتفريج المحسنين من عباده الذين ختم بهم الأمم ونسخ بملتهم الملل، وأدالهم على جميع الدول، فقال معبراً بما يقتضي الاستعلاء من ضمير الذكور العقلاء: {وهم} أي الروم، ودل على التبعيض وقرب الزمان بإثبات الجار فقال، معبراً بالجار إشارة إلى أن استعلاءهم إنما يكون في بعض زمان البعد ولا يدوم: {من بعد غلبهم} الذي تم عليهم من غلبة فارس إياهم، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول {سيغلبون*} فارساً، فأكد وعده بالسين- وهو غني عن التأكيد- جرياً على مناهيج القوم لما وقع في ذلك من إنكارهم {في بعض سنين*} وذلك من أدنى العدد لأنه في المرتبة الأولى، وهي مرتبة الآحاد، وعبر بالبضع ولم يعين إبقاء للعباد في ربقة نوع من الجهل، تعجيزاً لهم، وتحدياً لمن عاند بنفي ما أخبر به أو يعلم ما ستر منه، وتشريعاً للتعمية إذا قادت

إليها مصــــلحة، وشـــرح ذلك أنه كان بين فارس والروم حروب متواصــــلة، وزحوف متكاثرة، في دهور متطاولة، إلى أن التقوا في السنة الثامنة من نبوة نبينا محمد صــلى الله عليه وسـلم في زمن أبرويز بن هرمز بن أنوشـروان، فظفرت فارس على الروم، أخرج ســـنيد بن داود في تفســـيره والواحدي في أســـباب النزول والترمذي في تفســـير ســـورة الروم من جامعه وغيرهم، وقد جمعت ما ذكروه، وربما أدخلت حديث بعضهم في بعض.

قال ســـنيد عن عكرمة : كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً، وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشـــيري عليَّ أيهم أســـتعمل، فأشـــارت عليه بولد يدعى شـــهربراز، فاسـتعمله على جيش أهل فارس وقال الأسـتاذ أبو علي أحمد بن محمد بن مســـكوية في كتابه تجارب الأمم وعواقب الهمم، فقالت تصـــف بنيها : هذا فرحان أنفذ من سنان، هذا شـهربراز أحكم من كذا، هذا فلان أروغ من كذا، فاستعمل أيهم شئت. فاستعمل شهربراز – انتهى. وبعث قيصر رجلاً يدعى قطمير بجيش من الروم، فالتقى مع شـهربراز بأذرعات وبصـرى، وهي أدنى الشـــــام إلى أرض العرب فغلبت فارس الروم وظهروا عليهم فقتلوهم وخربوا مدائنهم وقطعوا زيتونهم، وبلغ ذلك النبي صـــلى الله عليه وسـلم وأصـحابه رضـــي الله عنهم وهم بمكة فشـق ذلك عليهم، وكان النبي صـــلى الله عليه وسـلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، لأن فارس لم يكن لهم كتاب، وكانوا يجحدون البعث، ويعبدون النار والأصـــنام، وفرح كفار مكة وشـــمتوا . قال الترمذي عن ابن عباس رضـــي الله عنهما :

وكان المشـــركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، وكان المســـلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب– انتهى. فلقي المشركون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وأهل فارس أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم، فإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم . فذكر ذلك أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما إنهم سيغلبون في بضع سنين».

قال الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فذكره أبو بكر رضي الله عنه لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس ســـنين فلم يظهروا فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ألا جعلته إلى دون» يعني دون العشرة، فإن البضـــع ما بين ثلاث إلى تســـع، ثم ظهرت الروم بعد ذلك، وروى الترمذي أيضاً عن نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله تعالى عنه وقال: حديث حسن صحيح غريب، قال: لما نزلت: {الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم ســـيغلبون في بضـــع ســـنين} وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المســـلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل الكتاب، وفي ذلك قول الله تعالى: {ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشـــــاء وهو العزيز الرحيم} وكانت قريش «تحب» ظهور فارس لأنهم وإياهم ليســـوا بأهل الكتاب ولا إيمان ببعث، فلما نزلت هذه الآية خرج أبو بكر رضـــــي الله عنه يصـــــيح في نواحي مكة {الم غلبت الروم في أدنى

الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين} ! قال ناس من قريش لأبي بكر رضي الله عنه: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر رضي الله عنه: كم تجعل البضع من ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه، فسموا بينهم ست سنين، فمضت الست سنون قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر رضي الله عنه، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر رضي الله عنه تسمية ست سنين، لأن الله تعالى قال: {في بضع سنين}. قال ابن الجوزي في زاد المسير: وقالوا: هلاّ أقررتها على ما أقرها الله، لو شاء أن يقول: ستاً، لقال. قال الترمذي في روايته: وأسلم عند ذلك ناس كثير. وروى الترمذي أيضاً والواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد رضي الله عنه أن ظهور الروم عليهم كان يوم بدر. وقال الزمخشري فيما ذكره من عند سنيد أنه كان يوم الحديبية فإنه قال بعد أن ساق نحو ما مضى: فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه- يعني للمشركين: لا يقرنّ الله أعينكم! فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت يا أبا فضيل! اجعل بيننا وبينك أجلاً أناحبك عليه.

-والمناحبة: المراهنة- فناحبه على عشر قلائص- من كل واحدة منهما، وجعل الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر

ومادّه في الأجل، فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني الذي جرحه به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد، فظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين. وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين، فأخذ ابو بكر رضي الله عنه الخطر من ذرية أبي، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «تصدق به»- انتهى. وربما أيد القول بأنه سنة الحديبية سنة ست ما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان رضي الله عنهم في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل وسؤال هرقل لأبي سفيان رضي الله عنه، وفيه أن ذلك لما كشف الله عن قيصر جنود فارس ومشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، ومن المعلوم أن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه وإلى غيره من الملوك كان بعد الرجوع من الحديبية، وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة الصادقة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله نزل بالحق المبين، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى فطابقه الواقع. وقال ابن الجوزي: وفي الذي تولى وضع الرهان من المشركين قولان: أحدهما أبي بن خلف- قاله قتادة، والثاني أبو سفيان بن حرب- قاله السدي- انتهى. وذكر القصة أبو حيان في تفسيره البحر وزاد عن مجاهد أن التقاءهم لما ظهرت فارس كان في الجزيرة، وعن السدي أنه كان بأرض الأردن وفلسطين، وأن أبا بكر رضي الله عنه لما أراد الهجرة طلب منه أبي بن خلف كفيلاً بالخطر الذي كان بينهما في ذلك، فكفل به ابنه عبد الرحمن رضي الله عنه، فلما أراد أبي

الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه كفيلاً وهلك أبي من جرح جرحه النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن الفرات في تأريخه: كان بين كسرى أنوشروان وبين ملك الروم هدنة، فوقع بين رجلين من أصحابهما فبغى الرومي على الفارسي، فأرسل كسرى إلى ملك الروم بسببه، فلم يحفل برسالته، فغزاه كسرى في بضع وسبعين ألف مقاتل فأخذ مدينة دارا والرها ومنبج وقنسرين وحلب وأنطاكية- وكانت أفضل مدينة بالشام- وفامية وحمص ومدناً كثيرة، واحتوى على ما كان فيها. وسبى أهل أنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد، وكان ملك الروم يؤدي إليه الخراج، ولم يزل مظفراً منصوراً، تهابه الأمم، ويحضر بابه من وفودهم عدد كثير من الترك والصين والخزر ونظائرهم، وقال أيضاً في ملك أبرويز بن هرمز بن أنوشروان: وكان شديد الفطنة، قوي الذكاء، بعث الأصبهبذ- يعني شهربراز- مرة إلى الروم فأخذ خزائن الروم، وبعث بها إلى كسرى، فخاف كسرى أن يتغير عليه الأصبهبذ، لما قد نال من الظفر فبعث بقتله، فجاء الرجل إليه فرأى من عقله وتدبيره ما منعه من قتله وقال: مثل هذا لا يقتل، وأخبره ما جاء لأجله، فبعث إلى قيصر ملك الروم: إني أريد أن ألقاك، فالتقيا فقال له: إن الخبيث قد هم بقتلي، وإني أريد إهلاكه، فاجعل لي من نفسك ما أطمئن إليه، وأعطيك من بيوت أمواله مثل ما أصبت منك.

فأعطاه المواثيق، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل، فنزل بكسرى، فعلم كسرى كيف جرى الحال، فدعا قساً نصرانياً، يعني وكتب معه كتاباً. وقال ابن مسكويه: وكان أبرويز وجه رجلاً من جلة أصحابه في جيش جرار إلى

بلاد الروم، فأنكى فيهم وبلغ منهم، وفتح الشـامات وبلغ الدروب في آثارهم، فعظم أمره وخافه أبرويز فكاتبه بكتابين يأمره في أحدهما أن يسـتخلف على جيشـه من يثق به ويقبل إليه، ويأمره في الآخر أن يقيم بموضـعه، فإنه لما تدبر أمره وأجال الرأي لم يجد من يسد مسده، ولم يأمن الخلل إن غاب عن موضـعه، وأرسـل بالكتابين رسـولاً من ثقاته وقال له: أوصـل الكتاب الأول بـالأمر بالقدوم فإن خف لذلك فهو ما أردت، وإن كره وتثاقل عن الطاعة فاسـكت عليه أياماً ثم أعلمه الكتاب الثاني ورد عليك وأوصـله إليه ليقيم بموضـعه. فخرج رسول كسرى حتى ورد على صاحب الجيش ببلاد الشـام، فأوصـل الكتاب الأول إليه، فلما قرأه قال: إما أن يكون كسـرى قد تغير لي وكره موضـعي، أو يكون قد اختلط عقله بصـرف مثلي وأنا في نحر العدو، فدعا أصـحابه وقرأ عليهم الكتاب فأنكروه، فلما كان بعد ثلاثة أيام أوصـل إليه الكتاب الثاني بالمقام، وأوهمه أن رسـولاً ورد به، فلما قرأه قال: هذا تخليط ولم يقع منه موقعاً، ودس إلى ملك الروم من ناظره في إيقاع صـلح بينهما على أن يخلي الطريق لملك الروم حتى يدخل بلاد العراق على غرة من كسـرى، وعلى أن لملك الروم ما يغلب عليه من دون العراق، وللفارسـي ما وراء ذلك إلى بلاد فارس، فأجابه ملك الروم إلى ذلك وتنحى الفارسـي عنه في ناحية من الجزيرة، وأخذ أفواه الطرق، فلم يعلم كسرى حتى ورد خبر ملك الروم عليه من ناحية قرقيسـيا وكسـرى غير معد وجنده متفرق في أعماله، فوثب من سـريره مع قراءة الخبر وقال: هذا وقت حيلة، لا وقت شـدة، وجعل ينكت في الأرض ملياً، ثم دعا برقّ وكتب فيه كتاباً صـغيراً

بخط دقيق إلى صـاحبه بالجزيرة يقول فيه: قد علمت ما كنت أمرتك به من مواصلة صاحب الروم وإطماعه في نفسك وتخلية الطريق له حتى إذا تولج في بلادنا أخذته من أمامه، وأخذته أنت ومن ندبناه لذلك من خلفه، فيكون ذلك بواره، وقد تم في هذا الوقت ما دبرناه، وميعادك في الإيقاع به يوم كذا وكذا، ثم دعا راهباً كان في دير بجانب مدينته وقال: أيّ جار كنت لك؟ قال: أفضـل جار، قال: فقد بدت لنا إليك حاجة، فقال الراهب: الملك أجلّ من أن يكون له حاجة إلى مثلي، ولكن عندي بذل نفسـي في الذي يأمر به الملك، قال كسـرى: تحمل لي كتاباً إلى فلان صـاحبي – وقال ابن الفرات: إلى الأصبهبذ – ولا تطلعن على ذلك أحداً.

وأعطاه ألف دينار، قال: نعم! قال كسـرى: فإنك تجتاز بإخوانك النصـارى فأخفه، قال: نعم، فلما ولى عنه الراهب قال له كســرى: أعلمت ما في الكتاب؟ قال: لا، قال: فلا تحمله حتى تعلم ما فيه، فلما قرآه أدخله في جيبه ثم مضـى، فلما صـار في عسكر الروم نظر إلى الصـلبان والقسيسين وضـجيجهم بالتقديس والصـلوات فاحترق قلبه لهم وأشـفق مما خاف أن يقع بهم وقال في نفسـه: أنا شـر الناس إن حملت بيدي حتف النصـرانية وهلاك هؤلاء القوم، فصـاح: أنا لم يحملني كسرى رسالة ولا معي له كتاب، فأخذوه فوجدوا الكتاب معه، وقد كان كسـرى وجّه رسـولاً قبل ذلك اختصـر الطريق حتى مر بعسكر الروم كأنه رسول إلى كسرى من صـاحبه الذي طابق ملك الروم ومعـه كتـاب فيـه أن الملـك قد كـان أمرني بمقاربـة ملـك الروم وأن أختدعه وأخلي له الطريق فيأخذه الملك من أمامه وآخذه أنا من خلفه، وقد

فعلت ذلك، فرأى الملك في إعلامي وقت خروجه إليه، فأخذ ملك الروم الرسول وقرأ الكتاب وقال: عجبت أن يكون هذا الفارسي أدهن على كسرى، ووافاه أبرويز فيمن أمكنه من جنده، فوجد ملك الروم قد ولى هارباً، فأتبعه يقتل وياسـر من أدرك، وبلغ الأصـبهبذ هزيمة الروم فأحب أن يخلي نفسـه ويسـتر ذنبه لما فاته ما دبر، فخرج خلف الروم الهاربين فلم يسـلم منهم إلا قليل. وقال ابن الفرات: وخرج القس بالكتاب وأوصـله إلى قيصـر فقال: ما أراد إلا هلاكنا، وانهزم فاتبعه كسرى فنجا في شـرذمة يسيرة، وافتتح كسرى أبرويز عدة من بلاد أعدائه، وبلغت خيله القسـطنطينية وإفريقية. وقد ذكر ابن مسكويه أيضاً ما يمكن أن يكون المراد بالآية، وشرح أسباب ذلك فذكر أن هرمز بن أنوشـروان لما بعث بهرام بن بهرام الملقب جوبين إلى ملك الترك وظفر به ثم بابنه، أسـاء السـيرة فيه ولم يأذن له في الرجوع، بل أمره بالتقدم فيما لم يره بهرام صواباً وخاف مخالفته، وقد كان هرمز حسن السيرة جداً أديباً أريباً، داهياً إلا عرقاً قد نزعه أخواله من الترك، فكان لذلك مقصـياً للأشـراف وأهل البيوتات والعلماء، ولم يكن له رأي إلا في تألف السـفلة واسـتصـلاحهم ففسـدت عليه نيات الكبراء من جنده، فلما خافه بهرام جمع وجوه عسـكره، وخرج عليهم في زي النسـاء وبيده مغزل وقطن ثم جلس في موضـعه ووضـع بين يدي كل واحد منهم مغزلاً وقطناً، فامتعضـوا لذلك، فقال: إن كتاب الملك ورد عليّ بذلك، فلا بد من امتثال أمره إن كنتم طائعين، فأبوا وخلعوا هرمز، وأظهروا أن ابنه أبرويز أصلح للملك منه، فلما سـمع أبرويز بذلك خاف أباه على نفسـه، فهرب إلى أذربيجان، ولما بلغ

الجند الذين بحضـــرة هرمز خلعه أعجبهم، فضـــعف أمره، ثم أجمعوا على خلعه فخلعوه وسـلموه، فكوتب أبرويز بذلك فبادر بهراماً فسـبقه وجلس على سـرير الملك، فأطاعه الناس ودخل على أبيه، وأعلمه أنه نائبه، واعتذر إليه بأن ما حصـــل له لم يكن عن رأيه ولا برضـــاه ولا كان حاضـــره حتى يذب عنه، فعذره، وقصده بهرام فجرت بينهما أمور طويلة، وحروب هائلة، ضعف فيها أبرويز، وأحس من أصـــحابه فتوراً، وتبين فيهم فشـــلاً، فســـار إلى أبيه وشـــاوره فرأى له المصـــير إلى ملك الروم، فنهض إلى ذلك في عدة يســـيرة فيهم بندويه وبســـــطام خالاه، وكردي أخو بهرام، وكان ماقتاً لأخيه بهرام ومناصـــحاً لأبرويز، فقطعوا الفرات وصـــاروا إلى دير في أطراف العمارة، فلحقتهم خيل بهرام فقال بندويه لأبرويز : أعطني بزتك وزينتك لأحتال لك وأبذل نفســـي دونك، ففعل فأمره بالنجاة بمن معه، وأقام هو في الدير، فلما أحيط به اطلع بندويه من فوق الدير فأوهمهم أنه أبرويز بما عليه من البزة والزينة، فظنوه وسألهم الإمهال إلى غد ليسلمهم نفسه فأمسكوا، وحفظ الدير بالحرس، فلما أصـــبحوا اطلع عليهم وقال: إن عليَّ وعلى أصـــحابي بقية شـغل من اسـتعداد لصـلوات وعبادات فأمهلونا، ولم يزل يدافع حتى مضـى عامـة النهـار وعلم أن أبرويز قد فاتهم، ففتح حينئذ وأعلم قائدهم بأمرهم، فانصرف به إلى بهرام جوبين فحبسه.

ولما وصـــل أبرويز إلى أنطاكية كاتب ملك الروم وســـأله نصـــرته، فأجابه وتوادا إلى أن زوجة ابنته مريم وحملها إليه، وبعث إليه ســـتين ألف مقاتل فيهم أخوه تياذوس وسأله ترك الأتاوة التي كان آباؤه يسألونها ملوك الروم إذ

هو ملك، فاغتبط به أبرويز وسار بهم، فلما وصل إلى أداني أرضهم انضم إليه كثير من أهل فارس فاستظهر على بهرام، فقصد بهرام بلاد الترك فأكرمه ملكها، ولم يزل أبرويز يلاطف ملك الروم الذي نصره حتى وثبت الروم عليه في شيء أنكروه منه فقتلوه وملكوا غيره، ولجأ ابنه إلى أبرويز فملكه على الروم وأرسل معه جنوداً كثيفة عليهم شهربراز، فدوخ عليهم البلاد، وملك صاحب كسرى بيت المقدس وقصد قسطنطينية، فأناجوا على ضفة الخليج القريب منها، ولم يخضع لابن الملك الذي توجه كسرى أحد من الروم، وكانوا قد قتلوا الذي ملكوه بعد أبيه لما ظهر من فجوره وسوء تدبيره، وملكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل.

وقال ابن الفرات: إن أبرويز بعث مع ابن الملك الذي كان نصره ثلاثة من قواده في جنود كثيرة كثيفة، أما أحدهم فإنه كان يقال له زميرزان وجهه إلى بلاد الشلام فدوخها حتى انتهى إلى بلاد فلسطين، وورد مدينة بيت المقدس، وأخذ أسقفها ومن كان فيها من القسيسين وسائر النصارى بخشبة الصليب، وكانت قد دفنت في بستان في تابوت من ذهب وزرع فوقها مبقلة فدلوه عليها فحفر واستخرجها وبعث بها إلى كسرى في سنة أربع وعشرين من ملكه، وأما القائد الثاني- وكان يقال له: شاهير- فسار حتى احتوى على مصر والإسكندرية وبلاد النوبة وبعث إلى كسرى بمفاتيح مدينة الإسكندرية في سنة ثمان وعشرين من ملكه، وأما القائد الثالث- وكان يقال له: فرهان- فإنه قصد قسطنطينية حتى أناخ قريباً من ماء وخيم هنالك فأمره كسرى فخرب بلاد الروم غضباً مما انتهكوا من موريق- يعني الملك الذي كان

نصـــــره، وفعل هذا لأجل ابنه، وانتقاماً له منهم، ولم ينقد لابن الملك الذي فعل هذا لأجله أحد من الروم، لأنهم لما قتلوا الملك قوفا ملكوا عليهم رجلاً يقال له هرقل، ثم اتفق ابن الفرات وابن فتحون فقالا : فلما رأى هرقل عظيم ما فيه بلاد الروم من تخريب جنود فارس إياها وقتلهم مقاتلتهم، وســـبيهم ذراريهم، واستباحتهم أموالهم، تضـرع إلى الله تعالى، وأكثر الدعاء والابتهال فيقال : إنه رأى في منامه رجلاً ضـــــخم الجثة رفيع المجلس عليه، فدخل عليهما داخل، فألقى ذلك الرجل عن مجلسه وقال لهرقل: إني قد سلمته في يدك، فلم يقصـــص رؤياه تلك في يقظته حتى توالت عليه أمثالها، فرأى في بعض لياليه كأن رجلاً دخل عليهما وبيده ســلســـلة طويلة فألقاها في عنق صاحب المجلس الرفيع عليه ثم دفعه إليه وقال له: ها قد دفعت إليك كسرى برمته، وقال ابن الفرات : فاغزه فإنك مدال عليه، ونائل أمنيتك في غزاتك، فلما تتابعت عليه هذه الأحلام قصـــها على عظماء الروم وذوي العلم منهم، فأشاروا عليه أن يغزوه، فاستعد هرقل واستخلف ابنه على مدينة قسطنطينية، وأخذ غير الطريق الذي فيه شهربراز صاحب كسرى، وسار حتى دخل في بلاد أرمينية ونزل بنصيبين بعد سنة، وقد كان صاحب ذلك الثغر من قبل كسرى استدعى لموجدة كانت من كسرى عليه، وأما شـهربراز فكانت كتب كسرى ترد عليه في الجثوم على الموضع الذي هو به، وترك البراح، ثم بلغ كسرى تساقط هرقل في جنوده إلى نصـيبين فوجه لمحاربة هرقل رجلاً من قواده يقال له: راهزاد في اثني عشـــر ألفاً من الأنجاد، وأمره أن يقيم بنينوى وهي التي تدعى الآن الموصـــــل- على شـــاطئ دجلة، ويمنع الروم أن

يجوزوها، وكان كســرى بلغه خبر هرقل وأنه مغذ وهو يومئذ مقيم بدســكرة الملك، فتعذر راهزاد لأمر كسـرى وعسـكر حيث أمره فقطع هرقل دجلة من موضـــع آخر إلى الناحية التي كان فيها جند فارس، فأذكى راهزاد العيون عليه فانصرفوا إليه فأخبروه أنه في سبعين ألف مقاتل، فأيقن راهزاد أنه ومن معه من الجند عاجزون عن مناهضـــته، فكتب إلى كســـرى غير مرة دهم هرقل إياه بمن لا طاقة له ولمن معه بهم، لكثرتهم وحســـن عدته، قال ابن الفرات: فكتب كســرى إنكم إن عجزتم عن الروم لم تعجزوا عن بذل دمائكم في طاعتي، فلما تتابعت على راهزاد جوابات كســـرى بذلك عبى جنده، وناهض الروم بهم، فقتل الروم راهزاد وســـته آلاف رجل، وانهزمت بقيتهم، وهربوا على وجوههم، وبلغ كســـرى قتل الروم راهزاد وســـتة آلاف وما نال هرقل من الظفر فهدّه ذلك وانحاز من دسـكرة الملك إلى المدائن، وتحصـن به لعجزه كان عن محاربة هرقل، وسار هرقل حتى كان قريباً من المدائن.

قال ابن الفرات: فاستعد كسرى لقتاله ثم خالف كسرى ملك الروم فرجع إلى بلاده فحمل خزائنه في البحر. فعصفتا الريح فألقتها بالإسكندرية، فظفر بها أصــحابه من الروم، وذكر المســعودي هذا فخالف بعض المخالفة: فقال: وثب بطريق من بطارقة الروم يقال له قوقاس فيمن اتبعه على تموريقس ملك الروم حمو أبرويز ومنجده، فقتلوه وملكوا قوقاس، ونمى ذلك إلى أبرويز فغضـــب لحموه وســـيّر إلى الروم جيوش وكانت له في ذلك أخبار يطول ذكرها، وسيّر شهريار مرزبان المغرب إلى حرب الروم فنزل أنطاكية وكانت له مع ملك الروم وأبرويز أخبار ومكاتبات وحيل إلى أن خرج ملك الروم

إلى حرب شهريار، وقدم خزائنه في البحر في ألف مركب، فألقتها الريح إلى ساحل أنطاكية فغنمها شهريار فحملها إلى أبرويز فسميت خزائن الريح، ثم فسدت الحال بين أبرويز وشهريار، ومايل شهريار ملك الروم فسيره شهريار نحو العراق إلى أن انتهى إلى النهروان فاحتال أبرويز في كتب كتبها مع بعض أساقفة النصرانية ممن كان في ذمته حتى رده إلى القسطنطينية، وأفسد الحال بينه وبين شهريار. وقال أبو حيان: وسبب ظهور الروم أن كسرى بعث إلى شهربراز وهو الذي ولاه على محاربة الروم أن اقتل أخاك فرخان– انتهى. وهذا هو تتمة ما تقدم في خبر المرأة التي كانت لا تلد إلا الأبطال، وأن كسرى بعث ابنها شهربراز إلى حرب الروم فظهر عليهم.

قال ابن مسكوية: فلما ظهرت فارس علىلروم جلس فرخان يشرب فقال لأصحابه: لقد رأيت كأني جالس على سرير كسرى، فبلغت مقالته كسرى فكتب إلى شهربراز: إذا أتاك كتابي هذا فابعث إليَّ برأس فرخان، فكتب إليه: أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان، فإن له نكاية في العدو وصوتاً فلا تفعل، فكتب إليه: إن في رجال فارس خلفاً منه فعجل إليّ برأسه، فراجعه فغضب كسرى وبعث بريداً إلى أهل فارس: إني قد نزعت عنكم شهربراز واستعملت فرخان، ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة وقال: إذا ولى الفرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه، فلما قرأ شهربراز الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ونزل عن سريره، وجلس فرخان ودفع البريد الصحيفة إليه فقال: ائتوني بشهربراز، فقدمه ليضرب عنقه فقال: لا تعجل حتى أكتب وصيتي، قال: افعل. فدعا بسفط وأعطاه ثلاث صحائف، وقال: كل هذا راجعت فيك

كســـرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد، فرد الملك على أخيه، فكتب شهربراز إلى قيصر ملك الروم: إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصــحف فالقني، ولا تلقني إلا في خمســين رومياً، فإني أيضــاً ألقاك في خمسين فارساً، فأقبل قيصر في خمسائة رومي، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق، وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلاً، ثم بسط لهما والتقيا في قبة ديباج ضربت لهما، واجتمعا ومع كل واحد منهما سكين، ودعوا ترجماناً بينهما، فقال شهربراز : إن الذين خربوا مدائنك، وبلغوا منك ومن جندك ما بلغوا أنا وأخي بشـــجاعتنا وكيدنا، وأن كســـرى حســـدنا فأراد أن أقتل اخي فأبيت، ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلعناه جميعاً فنحن نقاتله معك، فقال: قد أصبتما ووفقتما ثم أشار أحدهما إلى صـــاحبه أن الســـر إنما يكون بين اثنين، فإذا جاوز اثنين فشـــا، قال صاحبه: أجل، فقاما جميعاً إلى الترجمان بسكينيهما فقتلاه، واتفقا على قتال كسرى، فتعاون شهربراز وهرقل على كسرى، فغلبت الروم فارسَ. وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في أوائل فتوح مصر نحو هذا الحديث من حديث ابن عباس رضــي الله عنهما أنه سمع ابن عمر رضــي الله عنه يسأل الهرمزان عن سبب ظهور الروم على كسرى فأخبره به، وكان مما تمكن الخلاف عليه أيضـــاً أنه كان طلب الذين هربوا بعد قتل قائدهم راهزاد، وأمر بأن يعاقبوا على انهزامهم، فأحوجهم بهذا إلى الخلاف عليه وطلب الحيل لنجاة أنفســـهم منه، فإن كانت الوقعة التي غلبت الروم فيها بأذرعات أو الأردن فهي أدنى أرض الروم– أي أقربها– إلى مكة المشــرفة،

وإن كانت بالجزيرة فهي أدنى بالنظر إلى كسرى– هذا ما حقت فيه الآية في ظاهر العبارة وصريحها مع ما انضم إلى ذلك من إداله العرب على الفرس أيضاً في هذا الوقت في وقعة ذي قار– كما بينته في شرحي لنظمي للسيرة النبوية المسمى «نظم الجواهر من سيرة سيد الأوائل والأواخر» وسيأتي ملخصه قريباً– حتى يقال: إن نصرة الروم والعرب ونصرة المسلمين في بدر كانت في آن واحد.

ومن أعاجيب ما دخل تحت مفهوم الآية من لطائف المعجزات في باطن الإشارة وتلويحها أن زماننا هذا كان قد غلب فيه على ملك مصر جندها الغرباء من الترك وغيرهم ثم اختص به الشراكسة منهم من نحو مائة سنة، وهم ممن ليس له كتاب في الأصل وإن كان إسلامهم قد جب ما كانوا عليه من قبل وكانوا إذا مات أحدهم وله ابن ولوا ابنه لأجل مماليكه واتباع ابيه إلى أن يعملوا الحيلة في خلعه، وكان أكثر أولادهم يكون صغيراً أو في حكمه حتى كانت سنة خمس وستين وثمانمائة، فصادف أن المتولي بها من أولادهم المؤيد أحمد بن الأشرف إينال العلائي، وكان قد ناهز الأربعين، وكان عنده حزم ودهاء، وزادت مدة ولايته بعد أبيه على أربعة أشهر فثقل عليهم جداً، وكان الأمير الكبير خشقدم أحد مماليك المؤيد شيخ وهو رومي، وكانت عادتهم أنهم إذا خلعوا أحداً من أبناء الملوك ولو الملك من كان في الإمرة الكبرى، فاختار الشراكسة ولايته وإن كان من غيرهم على ولاية من ولد في الإسلام في بلاد العرب، فأعملوا الحيلة في أمره إلى أن أجمع أمرهم ورأيهم كلهم على خلعه حتى مماليكه ومماليك أبيه، فقاموا في ذلك قومة

رجل واحد في أواخر شـــهر رمضـــان من الســـنة المذكورة، فلما لم يجد له ناصـراً أسـلم نفسـه في اليوم الثاني من وثوبهم عليه، فعرضـوا الولاية على شـــخص منهم فلم ير التقدم على أكبر منه في الرتبة فأشــــار إلى الأمير الكبير فولوه، ثم اجتهد بعضــهم في نزعه فلم يقدرهم الله على ذلك ولم يجمع كلمتهم على أحد، وقام هو في الأمر بجد عظيم وحزم، ولين في شدة وعزم، حتى استحكم أمره، وعظم قدره، وحسب عدد «بضـع» بالجمل فإذا هو اثنان وسـبعون وثمانمائة، وهو مقدار ما مضــى من السـنين من حين نزول الآية إلى حين ولايته، وذلك أن نصـر أهل فارس على الروم كما مضــى كان في الســـنة الثامنة من النبوة، وحينئذ نزلت الآية، فإذا قلنا : إن نزولها كان في شـهر رمضـان من تلك السـنة، كان قبل الهجرة بست سنين إذا جعلنا كسر الثامنة سنة، وقد كانت وقعة بدر في سابع عشر شـهر رمضـان من السنة الثانية من الهجرة في الشهر السابع، فيكون نصر الروم إذا صححنا كما هو الذي ينبغي أن لا يعتقد غيره لدلالة القرآن العظيم عليه كما تأتي الإشــــارة إليه أنه في سـنة غزوة بدر في آخر السـنة السـابعة من حين نزوال الآية، ويكون ولاية السلطان خشقدم لكونها في أواخر شهر رمضان في ابتداء سنة سـت وسـتين من الهجرة، فإذا ضـممت إليها السـت التي كانت قبل الهجرة كانت الجملة ثمانمائة واثنين وسـبعين على عدد «بضـع» المنظوم في الآية سواء، وإن صححنا كما أيده ما في الصحيح عن أبي سفيان أن نصر الروم كان وقت الحديبية وذلك في ذي القعدة سـنة سـت من الهجرة، وكما قلنا : كان نزول الآية قبل الهجرة بشهرين ونحوهما، صح أن نصر الروم كان عند

دخول السنة السابعة من نزول الآية كما في رواية الترمذي عن نيار رضـي الله عنه، وكان الموافق لعدد البضــع ســنة اثنتين وســبعين وثمانمائة من الهجرة، وفيها غلب شــخص من الروم، وذلك أن الظاهر خشــقدم مات في ربيع الأول ســنة اثنتين وســبعين وثمانمائة من الهجرة، فولى بعده الأمير الكبير يلبية وهو من الشــراكســة، فلم ينتظم له الأمر، فخلع في جمادى الأولى منها، وولى الأمير الكبير تمربغا ولقب الظاهر وهو رومي، فكان ذلك من الآيات الباهرات إن وافق هذا الأمر العدد المذكور على كلتا الروايتين: رواية من قال: إن التصر كان يوم بدر، ورواية من قال: كان يوم الحديبية، ولولا ولاية يلبية ما صــح إلا أحدهما، إن في ذلك لعبرة، هذا إن عددنا آحاد السنين، وإن عددناها مئات فهو في بضـع منها، فإنه في المائة التاسعة كما أشار إليه الأستاذ أبو الحكم عبد السلام بن برجان في تفسيره فقال : حكمة الله جل ذكره في دوائر التقدير أن يرجع فيها أواخر الكلم عن أوائلها، ومن الدوائر مقدرة، ومنها موسعة على مقدار مشيئة الله فيها وبها، ولما أخبر الله تعالى عن الروم أنهم غلبوا في أدنى الأرض وهي بلد الشـام، كان إخباراً منه عما يكون– والله أعلم– وبشارة بشر بها رسول الله صلى الله عليه وســلم والمؤمنين أن ذلك ســيكون، يعني أن معنى «غلبت» مبنياً للمفعول إن كان بالنسبة إلى فارس كان المعنى وقع غلبها، وإن كان بالنسبة للمسلمين كان المعنى: قرب زمان غلبها على أيدي المسلمين، ثم قال: فكان ذلك في زمان عمر بن الخطاب رضــي الله عنه، غلبهم في بلاد الشــام، واستخرج بيت المقدس عن أيديهم.

والبضـــع من الثلاث إلى التســع، وكان نزول هذه الســورة بمكة فكان ذلك داخل بضع أسابيع سنين على رأس عشرين إلى ثمان وعشرين سنة، ثم لم يزل الفتح بعد ذلك يتصل ويتسع إلى نهاية سبقت في التقدير، ثم ذكر عود التقدير باستيلاء الروم على بعض أطراف الشام ثم باستنقاذ المسلمين ذلك منهم، ونظر إلى ذلك تارة بحسب الأسابيع وتارة بحسب آحاد المئات، وتارة بغير ذلك، وصــحح وقوعه في البضـــع بالغالبية والمغلوبية مرة بعد أخرى، وهو من بدائع الأنظار، ودقائق الأسرار الكبار.

ولما كان تغليب ملك على ملك من الأمور الهائلة، وكان الإخبار به قبل كونه أهول، ذكر علة ذلك فقال: {لله} أي وحده {الأمر} ولما أفهم السـياق العناية بالروم، فكان ربما توهم أن غلب فارس لهم في تلك الواقعة وتأخير نصــرهم إلى البضـــع ربما كان لمانع لم يقدر على إزالته، نفى ذلك بإثبات الجار المفيد لأن أمره تعالى مبتدئ من الزمن الذي كان قبل غلبهم حتى لم تغلبهم فارس إلا به، وهو مبتدئ من الزمن الذي بعده، فالتأخير به لا بغيره، لحكمة دبرها سبحانه فقال: {من قبل} أي قبل دولة أهل فارس على الروم ثم دولة الروم على فارس، لا إلى غاية تكون مبدأ لاختصـــاصـــه بالأمور فيه سبحانه غلبوهم {ومن بعد} أي بعد دولة الروم عليهم ودولتهم على الروم لا إلى غاية فيه أيضـــاً غلبهم الروم، فحذف المضـــاف إليه هو الذي أفهم أن زمن غلبة فارس لهم وما بعده من البضع مذكور دخوله في أمره مرتين.

ولما أخبر بهذه المعجزة، تلاها بمعجزة أخرى، وهو أن أهل الإسلام لا يكون لهم ما يهمهم فيسرون بنصره فقال: {ويومئذ} أي إذ تغلب الروم على فارس

{يفرح المؤمنون} أي العريقون في هذا الوصف من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم {بنصر الله} أي الذي لا رادّ لأمره، لأهل الكتاب عامة، نصرهم على المشركين في غزوة بدر وهو المقصود بالذات، ونصر الروم على فارس لتصديق موعود الله ونصر من سيصير من أهل الكتاب الخاتم من مشركي العرب على الفرس في وقعة ذي قار، فقد وقع الفرح بالنصر الذي ينبغي إضافته إلى الله تعالى وهو نصر أهل الدين الصحيح أصلاً وحالاً ومالاً، وسوق الكلام على هذا الوجه الذي يحتمل الثلاثة من بدائع الإعجاز، وسبب وقعة ذي قار أنه كان أبرويز هذا- الذي غلب الروم ثم غلبته الروم- قد غضب على النعمان بن المنذر ملك العرب، فأتى النعمان هذا هانئ بن مسعود بن عامر الشيباني، فاستودعه ماله وأهله وولده- وألف شكة، أو أربعة آلاف شكة- والشكة بكسر المعجمة وتشديد الكاف: السلاح كله- ووضع وضائع عند أحياء العرب ثم هرب فأتى طيئاً لصهره فيهم، وكانت عنده فرعة بنت سعيد بن حارثة بن لأم وزينب بنت أوس بن حارثة بن لأم، فأبوا أن يدخلوه حبلهم وأتته بنو رواحة بن ربيعة بن عبس فقالوا له: أبيت اللعن! أقم عندنا فإنا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا، فقال: ما أحب أن تهلكوا بسبب فجزيتم خيراً، ثم خرج حتى وضع يده في يد كسرى فحبسه بساباط، وقال ابن مسكويه: بخانقين، فلم يزل في السجن حتى وقع الطاعون فمات فيه، قال: والناس يظنون أنه مات بساباط، والصحيح ما حكيناه.

فلما مات النعمان جعلت بكر بن وائل تغير في السواد، فغضب من ذلك كسرى، ثم بعث إلى هانئ بن مسعود يقول له: إن النعمان إنما كان عاملي،

وقد اســـتودعك ماله وأهله وحلقته فابعث إليّ بها ولا تكلفني أن أبعث إليك وإلى قومك بالجنود فتقتل المقاتلة وتسـبي الذراري، فبعث إليه هانئ أن الذي بلغك باطل، وما عندي شـــيء، وإن يكن الأمر كما قيل فإنما أنا أحد الرجلين: إما رجل اســتودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من اســتودعها ولن يســلم الحر أمانته، أو رجل مكذوب عليه وليس ينبغي للملك أن يأخذه بقول عدو أو حاسد. وكانت الأعاجم لهم قوة وحلم، وكانوا قد سمعوا ببعض حلم العرب، وأن الملك كائن فيهم، فلما ورد عليه كتاب هانئ بهذا حملته الشفقة أن يكون ذلك قد اقترب على أن خرج بنفسه، فأقبل حتى قطع الفرات فنزل غمر بني مقاتل، وقد أحنقه ما صـنعت بكر بن وائل في السـواد ومنع هانئ إياه ما منعه، ودعا كسرى إياس بن قبيصـة الطائي وكان عامله على عين التمر وما والاها، فاستشاره في الغارة على بكر بن وائل فقال له إياس: إن الملك لا يصلح أن يعصيه أحد من رعيته، وإن تطعني لم يعلم أحد لأي شـــيء عبرت وقطعت الفرات، فيرون أن أمر العرب قد كربك، ولكن ترجع وتضـــرب عنهم وتبعث عليهم العيون حتى ترى منهم غرة ثم ترســـل حينئذ كتيبة من العجم فيها بعض القبائل التي تليهم فيوقعون بهم وقعة الدهر، ويأتونك بطلبك، فقال له كســـرى: أنت رجل من العرب وبكر بن وائل أخوالك، فأنت تتعصب لهم لا تألوهم نصحاً، فقال إياس: الملك أفضل رأياً، فقام عمر بن عدي بن زيد العبادي وكان كاتبه وترجمانه بالعربية في أمور العرب فقال: قم أيها الملك وابعث إليهم بالجنود يكفوك! وقام إليه النعمان بن زرعة من ولد السفاح الثعلبي فقال له: أيها الملك! إن هذا الحي من بكر

بن وائل إذا قاظوا تهافتوا على ماء لهم يقال له : ذو قار، تهافت الفراش في النار، فعقد لنعمان بن زرعة على تغلب والنمر، وعقد لخالد بن يزيد البهراني على قضاعة وأياد وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر، فكانت العرب ثلاثة آلاف، وعقد للهامرز على ألف من الأساورة، وعقد لخيارزين على ألف، وبعث معهم باللطيمة وهي عير كانت تخرج من العراق فيها البن والعطر والألطاف، توصل ذلك إلى باذان عامل كسرى على اليمن، وقال: إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بها إلى اليمين، وأمر عمرو بن عدي أن يسير بها، وكانت العرب تحقرهم حتى تبلغ اللطيمة اليمن، وعهد كسرى إليهم إذا شارفوا بلاد بكر بن وائل أن يبعثوا إليهم النعمان بن زرعة، فإن أتوكم بالحلقة ومائة غلام منهم يكونون رهناً بما أحدث سفهاؤهم فاقبلوا منهم وإلا فقاتلوهم.

فلما بلغ الخبر بكر بن وائل سار هانئ بن مسعود حتى نزل بذي قار، وأقبل النعمان بن زرعة حتى نزل على ابن أخته مرة بن عبد الله العجلي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنكم أخوالي وأحد طرفي، وإن الرائد لا يكذب أهله، وقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس وفرسان العرب والكتيبتان الشهباء والدوسر، وإن الشر خياراً، ولأن يفدي بعضكم بعضاً خير من أن تصطلموا، انظروا هذه الحلقة فادفعوها وادفعوا معها رهناً من أبنائكم إليه بما أحدث سفهاؤكم، فقال له القوم: ننظر في أمورنا، وبعثوا إلى من يليهم من بكر بن وائل وبرزوا ببطحاء ذي قار بين الجلهتين- وجلهة الوادي : مقدمه، مثل جلهة الرأس إذا ذهب شعره- وجعلت بكر بن وائل حين بعثوا إلى من

حولهم من قبائل بكر لا ترفع لهم جماعة إلا قالوا: سيدنا في هذه الجماعة، إلى أن رفعت لهم جماعة فيها حنظلة بن ثعلبة بن سنان العجلي فقالوا: يا أبا معدان فقد طال انتظارنا وقد كرهنا أن نقطع أمراً دونك، وهذا ابن أختك النعمان بن زرعة قد جاء والرائد لا يكذب أهله، قال: فما الذي أجمع رأيكم عليه؟ قالوا: قلنا اللحي أهون من الوهي، وإن في الشر خياراً، ولأن نفدي بعضنا بعضاً خير من أن نصطلم جميعاً، فقال حنظلة: قبح الله هذا رأياً، لا تجر أحرار فارس غزلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع صوتاً، ثم أمر بقبته فضربت بوادي ذي قار ونزل الناس فأطافوا به ثم قال لهانئ بن مسعود: يا أبا أمامة! إن ذمتكم ذمتنا عامة، وأنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا، فأخرج هذه الحلقة ففرقها بين قومك، فإن تظفر فسترد عليك، وإن تهلك فأهون مفقود، فأمر بها فأخرجت ففرقها بينهم، ثم قال حنظلة للنعمان: لولا أنك رسول لما أبت إلى أهلك سالماً، فرجع النعمان إلى أصحابه، فأخبرهم فباتوا ليلتهم يستعدون للقتال، وبات بكر بن وائل يستعدون للحرب، فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم وأمر حنظلة بالظعن جميعاً فوقفها خلف الناس ثم قال: يا معشر بني بكر بن وائل! قاتلوا عن ظعنتكم أو دعوا، وأقبلت الأعاجم يسيرون إلى تعبئة، وكان ربيعة بن غزالة السكوتي ثم التجيبي يومئذ هو وقومه نزولاً في بني شيبان فقال: يا بني شيبان! أما إني لو كنت منكم لأشرت عليكم برأي مثل عروة العلم قالوا: وأنت والله من أوسطنا، أشر علينا، قال: لا تستهدفوا هذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن تكردسوا لهم كراديس فيشد عليهم كردوس، فإذا أقبلوا عليه شد الآخر، قالوا:

فإنك قد رأيت رأياً، ففعلوا، فلما التقى الزحفان وتقارب القوم قام حنظلة بن ثعلبة فقال: يا معشر بكر بن وائل! إن النشاب الذي مع الأعاجم يعرفكم، فإذا أرسلوه لم يُخْطِكُمْ، فعاجلوهم اللقاء وابدأوهم، ثم قام هانئ بن مسعود فقال: يا قوم! مهلك معذور خير من منجى مفرور، إن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، ياقوم: جدوا، فما من القوم بد فتح لو كان رجال أجد، أسمع صوتاً ولا أرى فوتاً، يا لبكر! شدوا واستعدوا، فإن لا تشدوا تردوا، ثم قام شريك بن عمرو بن شراحيل فقال: ياقوم! إنما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في عيونهم فعليكم بالصبر، فإن الأسنة تردي الأعنة، يا لبكر! قدماً قدماً، ثم قام عمرو بن جبلة اليشكري فقال:

يا قوم لا تغرركم هذي الخرق *** ولا وميض البيض في شمس برق

من لم يقاتل منكم هذي العنق *** فجنبوه اللحم واسقوه المرق

ثم قام حنظلة بن ثعلبة إلى (وضين) امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن بقيع وضنهن، لئلا يفر عنهن الرجال، والوضين: بطان الناقة فسمي يومئذ: مقطع الوضن. وقال ابن مسكوية: إنه لما قطع الوضن وقع النساء إلى الأرض وإن بنت القرين الشيبانية نادت:

ويها بني شيبان صفاً بعد صف *** إن تهزموا يصبّغوا فينا القلف ***

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم لتخف أيديهم بالضرب، وتقدمت عجل فأبلت يومئذ بلاء حسناً، واضطمت عليهم جنود

العجم فقال الناس : هلكت عجل، ثم حملت بكر فوجدت عجلاً ثابتة تقاتل وامرأة منهم تقول:

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل *** فدى لكم نفسي فدى بني عجل

وتقول أيضاً:

إن تقدموا نعانق *** ونفرش النمارق

أو تهربوا نفارق *** فراق غير وامق

فكانت بنو عجل في الميمنة بإزاء خيارزين وبنو شـيبان في الميسـرة بإزاء كتيبة الهامرز، وأفناء بكر بن وائل في القلب فخرج أسـوار من الأعاجم مسـور مشـنف في أذنيه درتان، من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز، فنادى في بني شيبان فلم يبارزه أحد حتى إذا دنا من بني يشكر برز له برد بن حارثة أخو بني ثعلبة فشـد عليه بالرمح فطعنه فدق صـلبه وأخذ حليته وسـلاحه، وقال ابن مسـكويه: ونادى الهامرز لما رأى جد القوم وثباتهم للحرب وصـبرهم للموت مرد ومرد، فقال برد بن حارثة اليشـكري: ما يقول؟ قيل: يدعو إلى البراز! يقول: رجل ورجل! فقال: وأبيكم لقد أنصف، وبرز له فلم يلبث برد أن تمكن من الهامرز فقتله. وقال ابن مكرم في اختصـاره للأغاني: ثم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس إلى أن زالت الشمس، فشد الحوقران واسمه الحارث ابن شريك على الهامرز فقتله وقتلت بنو عجل خيارزين، وضـرب الله وجوالفرس فانهزموا، وتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم حتى أصبحوا من الغد وقد شـارفوا السواد ودخلوه فلم يلفت منهم كبير أحد، وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقسـموها بينهم، وقسـموا تلك

اللطائم بين نسـائهم، وكان أول من انصـرف إلى كسـرى بالهزيمة إياس بن قبيصـة، وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه، فلما أتاه إياس سألـه عن الخبر فقال: هزمنا بكر بن وائل، وأتيناك بنسائهم، فأعجب ذلك كسرى، وأمر لـه بكسـوه، ثم إن إياسـاً اسـتأذنه عند ذلك فقال: إن أخي مريض بعين التمر، فأردت أن آتيه، وإنما أراد أن ينتحي عنه، فإذن لـه، ثم أتى رجل من أهل الحيرة فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: نعم! إياس، فقال: ثكلت إياســـاً أمه! وظن أنه قد حدثه بالخبر، فدخل عليه فحدثه بهزيمة القوم وقتلهم، فأمر به فنزعت كتفاه؛ وكانت وقعة ذي قار بعد وقعة بدر بأشـــهر ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فلما بلغه ذلك قال: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا».

روى ذلك الطبراني في المعجم الكبير، وقيل: إن الوقعة مثلت لرســـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو بالمدينة فرفع يده، فدعا لبني شـيبان أو لجماعة ربيعة بالنصـر، ولم يزل يدعو لهم حتى أرى هزيمة الفرس، وروي أنه صـلى الله عليه وسلم قال: «أيها بني ربيعة اللهم انصرهم» فهم إلى الآن إذا حاربوا نادوا بشعار النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، وقال قائلهم: يارسول الله! دعوتك، فإذا دعوا بذلك نصـروا. وروى ذلك الطبراني الكبير – قال الهيثمي: ورجاله الصـحيح غير خلاد بن عيسـى وهو ثقة– عن خالد ابن سـعيد بن العاص عن أبيه عن جده رضـــي الله عنه قال: «قدمت بكر بن وائل مكة فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لأبي بكر رضـي الله عنه:» ائتهم فاعرض عليهم! «فأتاهم فقال: من القوم؟ ثم عاد إليهم ثانية فقال: من

القوم؟ فقالوا: بنو ذهل بن شيبان، فعرض عليهم الإسلام، قالوا: حتى يجيء شيخنا فلان- قال خلاد: أحسبه قال: المثنى بن خارجة- فلما جاء شيخهم عرض عليهم أبو بكر رضي الله عنه، قال: إن بيننا وبين الفرس حرباً، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا، فقال له أبو بكر : أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا؟ قال: لا نشترط لك هذا علينا ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما نقول، فلما التقوا يوم ذي قار هم والفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى الله؟ قالوا: محمد، قال: فهو شعاركم! فنصروا على القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:» بي نصروا«

انتهى. ومن الأشعار في وقعة ذي قار قول أبي كلبة التميمي:

لولا فوارس لا ميل ولا عزل *** من اللهازم ما قظتم بذي قار

إن الفوارس من عجل هم أنفوا *** بأن يخلّوا لكسرى عرصة الدار

قد أحسنت ذهل شيبان وما عدلت *** في يوم ذي قار فرسان ابن سيار

هم الذين أتوهم عن شمائلهم *** كما تلبّس وراد بصدار

وقال الأعشى:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي *** وصاحبها يوم اللقاء وفلت

هم ضربوا بالحنو حنو قراقر *** مقدمة الهامرز حتى تولت

ولما أخبر بإدالة الروم بعد الإدالة عليهم مع ما دخل تحت مفهوم الآية، وكان ربما قيل: ما له لم يدم نصر أهل الكتاب؟ علل ذلك كله بقوله: {ينصر من يشاء} من ضعيف وقوي، لأنه لا مانع له ولا يسأل عما يفعل

{وهو العزيز} فلا يعز من عادى، ولا يذل من والى، ولما كان هذا السـياق لبشارة المؤمنين قال: {الرحيم} أي يخص حزبه بما ينيلهم قربه من الأخلاق الزكية، والأعمال المرضية.

▲ تفسير الآيات رقم [6- 8]

{وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8)}

ولما نزل هذا على قوم أكثرهم له منكر، أكده سـبحانه بما يقوي قلوب أصـفيائه بتبيين المراد، ويرد ألسـنة أعدائه عن كثير من النآد، ويعرفهم أنه كما صـدق في هذا الوعد لأجل تفريح أوليائه فهو يصـدق في وعد الآخرة ليحكم بالعدل، ويأخذ لهم حقهم ممن عاداهم، ويفضـل عليهم بعد ذلك بما يريد، فقال: {وعد الله} أي الذي له جميع صـفات الكمال، وهو متعال عن كل شـائبة نقص، فلذلك {لا يخلف} وأعاد ذكر الجلالة تنبيهاً على عظم الأمر فقال: {الله} أي الذي له الأمر كله. ولما كان لا يخلف شـيئاً من الوعد، لا هذا الذي في أمر الروم ولا غيره، أظهر فقال: {وعده} كما يعلم ذلك أولياؤه {ولكن أكثر الناس} وهو أهل الاضطراب والنوس {لا يعلمون*} أي ليس لهم علم أصـلاً، ولذلك لا نظر لهم يؤدي إلى أنه وعد وأنه لا بد من وقوع ما وعد به في الحال التي ذكرها لأنه قادر وحكيم.

ولما كان من المشاهدة أن لهم عقولاً راجحة وأفكار صافية، وأنظار صائبة، فكانوا بصــدد أن يقولوا: إن علمنا أكبر من علمكم، كان كأنه قيل بياناً لأنه يصح سلب ما ينفع من العلم بتأديته إلى السعادة الباقية، وتنبيهاً على أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا: نعم {يعلمون} ولكن {ظاهراً} أي واحداً {من} التقلب في {الحياة الدنيا} وهو ما أدتهم إليه حواســهم وتجاربهم إلى ما يكون ســبباً للتمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، قال الحســن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسـن يصـلي- انتهى. وأمثال هذا لهم كثير، وهو وإن كان عند أهل الدنيا عظيماً فهو عند الله حقير، فلذلك حقره لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم في إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل، وما يضــرها فتدفعه بأنواع من الخداع، وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة، فهو ممدوح منبه عليه بوصـــفها بما يفهم الأخرى.

ولما ذكر حالهم في الدنيا، أتبعه ذكر اعتقادهم في الآخرة، مؤكداً إشارة إلى أن الحال يقتضي إنكار أن يغفل أحد عنها، لما لها من واضح الدلائل أقربه أن اسم ضدها يدل عليها، لأنه لا تكون إلا في مقابلة قصياً، ولا أولى إلا بالنسبة إلى أخرى، فقال: {وهم} أي هؤلاء الموصوفون خاصة {عن الآخرة} التي هي المقصــود بالذات وما خلقت الدنيا إلا للتوصــل بها إليها ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والكبر والجلال والإكرام {هم غافلون*} أي في غاية الاســتغراق والإضــراب عنها بحيث لا يخطر في خواطرهم،

فصاروا لاستيلاء الغفلة عليهم إذا ذكرت لهم كذبوا بها، واستهزؤوا بالمخبر، ولم يجوزوها نوع تجير مع أن دلائلها تفوت الحصـــــر، وتزيد على العد، فصاروا كأنهم مخصوصون بالغفلة عنها من بين سائر الناس ومخصصون لها بالغفلة من بين ســائر الممكنات، فلذلك لا يصــدقون الوعد بإدالة الروم لما رســـخ في نفوســـــهم من أن الأمور تجري بين العباد على غير قانون الحكمة، لأنهم كثيراً ما يرون الظالم يموت ولم يقتص منه، وهم في غفلة عن أنه أخر جزاؤه إلى يوم الدين، يوم يكشــف الجبار حجاب الغفلة ويظهر عدله وفضـــله، وتوضـــع الموازين القســط، فتطيش بمثاقيل الذر، ويقتص للمظلومين من الظالمين، ومن أريد القصـــاص منه عاجلاً فعل، وقضــية الروم هذه من ذلك، وهذا الســـياق يدل على أنه لا حجاب عن العلم أعظم من التكذيب بالآخرة، ولا شـــيء أعون عليه من التصـــديق بها والاهتمام بشـــأنها، لأن ذلك حامل على طلب الخلاص في ذلك اليوم، وهو لا يكون على أتم الوجوه إلا لمن وصـــل إلى حالة المراقبة، وذلك لا يكون إلا لمن علم إما بالكشــف أو الكســب كل علم فلم يتحرك حركة إلا بدليل يبيحها له ويحمله عليها، وبهذا التقرير يظهر أن هاتين الجملتين بكمالهما علة لنفي العلم عنهم، والمعنى أن العلم منفي عنهم لما شــغل قلوبهم من هذا الظاهر في حال غفلتهم عن الآخرة، فانسد عليهم باب العلم- والله الموفق.

ولما كان التقدير: أفلم يتدبروا القرآن وما كشـف لهم عنه من الحكم والأمور التي وعد الله بها على لســان نبيه محمد صــلى الله عليه وســلم فيه أو في الســنة، فكانت على حســب ما وعد، أو لم يتأملوا مصــنوعات الله عموماً

فتدلهم عقولهم منها على أنه لا يصلح للإلهية إلا من كان حكيماً، ولا يكون حكيماً إلا من صدق في وعده، وأنه لا تتم الحكمة إلا بإيجاد الآخرة، عطف عليه قوله منكراً عليهم موبخاً لهم : {أولم يتفكروا} أي يجتهدوا في إعمال الفكر، ثم ذكر آلة الفكر زيادة في تصــــوير حال المتفكرين والتذكير بهيئة المعتبرين فقال : {في أنفســــهم} ويجوز أن تكون هي المتفكر فيه فيكون المعنى: يتفكروا في أحوالها خصوصاً فيعلموا أن من كان منهم قادراً كاملاً لا يخلف وعده وهو إنســــان ناقص، فكيف بالإله الحق، ويعلموا أن الذي ساوى بينهم في الإيجاد من العدم وطورهم في أطوار الصور، وفاوت بينهم في القوى والقدر، وبين آجالهم في الطول والقصــر، وســلط بعضــهم على بعض بأنواع الضــرر، وأمات أكثرهم مظلوماً قبل القصــاص والظفر، لا بد في حكمته البالغة من جمعهم للعدل بينهم في جزاء من وفى أو غدر، أو شــــكر أو كفر، ثم ذكر نتيجة ذلك وعلله بقوله في أســــلوب التأكيد لأجل إنكارهم، وعلى التقدير الأول يكون هذا هو المتفكر فيه {ما خلق الله} أي بعز جلاله، وعلوه في كماله {الســـماوات والأرض} على ما هما عليه من النظام المحكم، والقانون المتقن، وأفرد الأرض لعدم دليل حســـي أو عقلي يدلهم على تعددها بخلاف السماء {وما بينهما} من المعاني التي بها كمال منافعهما {إلا} خلقاً متلبســاً {بالحق} أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع، فإذا ذكر البعث الذي هو مبدأه الآخرة التي هذا أســـلوبها وجد الواقع في تصوير النطف ونفخ الروح وتمييز الصالح منها للتصوير من الفاسد يطابق ذلك، وإذا تدبر النبات بعد أن كان هشـــيماً قد نزل عليه الماء فزها واهتز

وربا وجده مطابقاً للأمر البعث، وإذا ذكر القدرة فرأى اختلاف الليل والنهار، وسـير الكواكب الصـغار والكبار، وإمطار الأمطار، وإجراء الأنهار، ونحو ذلك من الأسـرار، رآه مطابقاً لكل ما يخطر في باله من الأقدار، وإذا خطر له العلم، فتبصـر في جري هذه الأمور وغيرها على منهاج مسـتقيم، ونظام واضح قويم، وسير متقن حكيم، علم أن ذلك في غاية المطابقة للخبر بالعلم الشامل والقدرة التامة على البعث وغيره، أو إلا بالأمر الثابت والقضاء النافذ الذي لا يتخلف عنه المراد، ولا يستعصي عليه حيوان ولا جماد، وخلقكم من هذا الخلق الكبير الذي قام بأمره من بعض ترابه.

ثم جعلكم من سـلالة من ماء مهين، فالقدرة التي خلق بها ذلك كله وابتدأكم ثم يبيدكم، بها بعينها يحييكم ويعيدكم، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون، أو إلا بسبب إحقاق الحق وإبطال الباطل، فلا بد من تصديق وعده بإدالة الروم لأخذ حقهم من الفرس، ولا بد من أن يقيمكم بعد أن ينيمكم ويثبت كل حق رأيتموه قد أبطل، ويبطل كل باطل رأيتموه قد أعمل، لأنه أحكم الحاكمين، فلو أقر على إماتة حق أو إحياء باطل لما كان كذلك. ولما كان عندهم أن هذا الوجود حياة وموت لا إلى نفاد، قال: {وأجل} لا بد أن ينتهي إليه {مسـمى} أي في العلم من الأزل، وذلك الأجل هو وقت قيام السـاعة، وذلك أنه كما جعل لهم آجالاً لأصـلهم وفرعهم لم يشـذ عنها أحد منهم فكذلك لا بد من أجل مسمى لما خلقوا منه، فإذا جاء ذلك الأجل انحل هذا النظام، واختل هذا الإحكام، وزالت هذه الأحكام، فتساقطت هذه الأجرام،

وصـــارت إلى ما كانت عليه من الإعدام، وإلا كان الخلق عبثاً يتعالى عنه الملك العلام.

ولما كانوا ينكرون أنهم على كفر، أكد قوله: {وإن كثيراً من الناس} مع ذلك على وضـــوحه {بلقاء ربهم} الذي ملأهم إحســـاناً برجوعهم في الآخرة إلى العرض عليه للثواب والعقاب {لكافرون} أي لســـاترون ما في عقولهم من دلائل وحدانيته وحجج قدرته وحكمته ســـتراً عظيماً، كأنه غريزة لهم، فهم لذلك يكذبون بما وعدكم ســـبحانه من إدالة الروم على الفرس، فلا يهولنكم ذلك لأنهم قد كذبوا بما هو أكبر منه، وهو الآخرة على ما لها من الدلائل التي تفوت الحصـــر، وإذا راجعت ما تقدم في آية الأنعام {وهو الذي خلقكم من طين} [آية: 2] ازددت في هذا بصيرة.

▲ تفسير الآية رقم [9]

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)}

ولما أقام عليهم الدليل، أتبعه التهديد والتهويل، فقال عاطفاً على «أولم يتفكروا» {أولم يســـيروا} ولما أحاطت آثار المكذبين بمكة المشـــرفة شـــرقاً وغرباً، وجنوباً وشـــمالاً، بديار ثمود وقوم فرعون وعاد وســـبأ وقوم ولوط، عرف وأطلق فقال: {في الأرض} أي سير اعتبار وتأمل وادكار من أي جهة أرادوا، وفيه إشـــارة إلى أنهم واقفون عند النظر في ظاهر الملك بأبصـــارهم،

قاصـــــرون عن الاعتبار في باطن الملكوت بأفكارهم، وفيه هزٌّ لهم إلى امتطاء هذه الدرجة العلية، بهذه العبارة الجلية {فينظروا}.

ولما كان ما حل بالماضين أمراً عظيماً، نبه على عظمه بأنه أهل لأن يسأل عنه فقال: {كيف كان} أي كوناً لا قدرة على الانفكاك عنه، وتذكير العمل يشير إلى عظم الأمر {عاقبة} أي آخر أمر {الذين} ولا كان حال من قرب من زمان الإنســـــان أوعظ له، أثبت الجار فقال: {من قبلهم} في إهلاك العاصـي وإنجاء الطائع، ولما كان علم العاقبة مشـروطاً بمعرفة البادئة قال مستأنفاً: {كانوا} أي كوناً هو في غاية المكنة.

ولما كان السـياق للظهور والغلبة التي إنما مدارها على الشـدة المقتضـية للثبات، لا الكثرة العارية عنها، أعرض عنها وقال مسـقطاً ضـمير الفصـل لأن هذا السـياق لا يظهر فيه ادعاء العرب لعلوهم على فارس ولا الروم: {أشدَّ منهم} أي من العرب {قوة} أي في أبدانهم وعقولهم، ولما كان التقدير: فنقبوا الجبال، وعلوا من متقن الصنائع التي ترونها من الأعمال ما لم يدانيه أحد من الأجيال، عطف عليه قوله: {وأثاروا} بالحرث وغيره {الأرض} فأخرجوا ما فيها من المنافع من المياه والمعادن والزروع وغير ذلك من المعادن {وعمروها} أي أولئك السالفون {أكثر مما عمروها} أي هؤلاء الذين أرســـلت إليهم، بل ليس لهم من إثارة الأرض وعمارتها كبير أمر، فإن بلاد العرب إنما هي جبال ســـود وفيافي غبر، فما هو إلا تهكم بهم، وبيان لضعف حالهم في دنياهم التي لا فخر لهم بغيرها.

ولما كانوا قد وقفوا مثل هؤلاء مع الســـبب الأدنى، ولم يرتقوا بعقولهم إلى المطلوب الأعلى، أخبر أنـه أرســـل إليهم الـدعـاة ينبهونهم من رقـدتهم، وينقذونهم من غفلتهم، فكان التقدير: فضلوا عن المنهج الواضح، وعموا عن السبيل الرحب، وزاغوا عن طريق الرب، فأرسلنا إليهم الرسل، فعطف عليه قوله مشـــيراً بتأنيث الفعل إلى ضـــعف عقولهم بتكذيبهم الرســـل كما تقدم إيضـــاحه عند {تلك الرســـل} [البقرة: 253]: {وجاءتهم رســـلهم} أي عنا {بالبينات} من المعجزات مثل ما أتاكم به رسولنا من وعودنا السابقة، وأمورنا الخارقة، كأمر الإســـراء وما أظهر فيه من الغرائب كالإخبار بأن العير تقدم في يوم كذا يقدمها جمل صفته كذا وغرائره كذا، فظهر كذلك، وما آمنتم كما لم يؤمن من كان أشد منكم قوة {فما} أي بسبب أنه ما {كان الله} على ما له من أوصـــاف الكمال مريداً {ليظلمهم} بأن يفعل معهم فعل من تعدونه أنتم ظـالماً بأن يهلكهم في الدنيا ثم يقتص منهم في القيامة قبل إقامة الحجة عليهم بإرســـال الرســـل بالبينات {ولكن كانوا} بغاية جهدهم {أنفســـهم} أي خاصـــة {يظلمون} أي يجددون الظلم لها بإيقاع الضـــر موقع جلب النفع، لأنهم لا يعتبرون بعقولهم التي ركبناها فيهم ليستضيئوا بها فيعلموا الحق من الباطل، ولا يقبلون من الهداة إذا كشـــفوا لهم ما عليها من الغطاء، ولا يرجعون عن الغي إذا اضـــطروهم بالآيات الباهرات، بل ينتقلون من الغفلة إلى العناد.

▲ تفسير الآيات رقم [10- 13]

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13)}

ولما كان انتكاسهم بعد هذا الأسباب المسعدة بعيداً، أشار إليه بأداة التراخي، أو هي إشارة إلى تطاول دعار الرسل لهم واحتمالهم إياهم فقال: {ثم كان} أي كوناً تعذر الانفكاك عنه، وهو في غاية الهول كما اشار إليه تذكير الفعل {عاقبة} أي آخر أمر {الذين أساءوا} أظهر موضع الإضمار تعميماً ودلالة على السبب {السوأَى} أي الحالة التي هي أسوأ ما يكون، وهي خسارة الأنفس بالدمار في الدنيا والخلود في العذاب في الأخرى، جزاء لهم بجنس عملهم، فنهم كما أساؤوا الرسل ساءهم الملك؛ ثم ذكر العلة بقوله: {أن كذبوا} أي لأجل تكذيبهم الرسل، مستهينين {بآيات الله} أي الدلالات المنسوبة إلى الملك الأعلى الذي له الكمال كله الدالة عليه على عظمها بعظمه {وكانوا} أي كوناً كأنه جبلة لهم {بها} مع كونها أبعد شيء عن الهزء {يستهزءون} أي يستمرون على ذلك بتجديده في كل حين مع تعظيمه حتى كان استهزاؤهم بغيرها كأن عدم، كما أنكم أنتم تكذبون بما وقع من الوعد في أمر الروم وتستهزئون به فاحذروا أن يحل بكم ما حل بالأولين، ثم تردون إليه سبحانه فيعذبكم العذاب الأكبر، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من «السُّوأَى» أو بياناً لها بمعنى أنهم لما أساؤوا زادتهم إساءتهم عماوة حتى

ارتكسوا في العمى فوصلوا إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أقبح الحالات، عكس ما يجازي به المؤمن من أنه يزداد بإيمانه هدى.

ولما كان حاصل ما مضى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء، وكان للتصريح مع النفس حالة ليست لغيره، قال ذاكراً نتيجة ما مضى ومحصله تصريحاً بالمقصود وتلخيصاً للدليل: {الله} أي المحيط علماً وقدرة {يبدأ الخلق} أي بدا منه ما رأيتم وهو يجدد في كل حين ما يريد من ذلك كما تشاهدون {ثم يعيده} بعد ما يبيده، وترك توكيده إشارة إلى أنه غني عنه لأنه من القضايا المسلمة أن من اخترع شيئاً كان لا محالة قادراً على إعادته.

ولما كان الجزاء أمراً مهولاً، أشار إليه بأداة التراخي فقال: {ثم إليه} أي لا إلى غيره {ترجعون*} معنى في أموركم كلها في الدنيا وإن كنتم لقصور النظر تنسبونها إلى الأسباب، وحسا بعد قيام الساعة، وقراءة الجماعة بالالتفات إلى الخطاب أبلغ لأنها أنص على المقصود، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بالياء التحتانية على النسق الماضي.

ولما ذكر الرجوع، أتبعه بعض أحواله فقال: {ويوم تقوم الساعة} سميت بذلك إشارة إلى عظيم القدرة عليها مع كثرة الخلائق على ما فيهم من العظماء والكبراء والرؤساء {يبلس} أي يسكت ويسكن يأساً وتحيراً على غاية الذل- بما أشار إليه تذكير الفعل مع التجدد والاستمرار بما أومأ إليه المضارع {المجرمون*} الذين وصلوا من الدنيا ما من حقه أن يقطع لفنائه، وقطعوا من أسباب الآخرة ما من حقه أن يوصل لبقائه، وكانوا في غاية اللبس في

الجدل ومعرفة كل ما يغيظ الخصـــم من القول والفعل والتمايل والتضــاحك عند سـكوت الخصـم تعجباً من جريانهم في هذيانهم سـروراً منهم بإسـكاته ليظن بعض من رآه أنه انقطع وأن الحجة لهم.

ولما كان الســـاكت ربما أغناه عن الكلام غيره، نفى ذلك بقوله محققاً له بجعله ماضـياً: {ولم يكن} ولما كان المقام لتحقيرهم بتحقير شـركائهم رتب نفي النفع الموجع لهم هـذا الترتيـب، ويجوز أن يراد بترتيبـه مع ذلـك التخصـيص فيقال: {لهم} أي خاصـة في ذلك الوقت ولا بعده، ولا كان في عداد ذلك من قبل لو كانوا يعقلون، وأما غيرهم ممن يصـح وصـفه بالإجرام لكونه من أهل الشـرك الخفي فقد يشـفع فيه من رباه من الشـهداء والعلماء وعامة المؤمنين {من شــركائهم} الذي زعموهم خاصـــة ليتبين لهم خلطهم وجهلهم المفرط في قولهم: {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: 18] وأما غيرهم فيقع منهم ما يسمى شفاعة تارة تصريحاً وأخرى تلويحاً كالشفاعة العامة من نبينا صلى الله عليه وسلم في الخلق عامة لفصل القضاء، وقوله صلى الله عليه وسـلم في ناس بأعيانهم: «أصـحابي إليّ إليّ، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول: فسـحقاً سـحقاً» وقول إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام {ومن عصـاني فإنك غفور رحيم} [إبراهيم: 36] {شـفعاء} ينقذونهم مما هم فيه وما يسـتقبلونه وإتيانه بصـيغة جمع الكثرة يمكن أن يكون لا مفهوم له، لأن مورده رد اعتقادهم في قولهم السـالف، ويمكن أن يفهم أنه قد يقع من بعض من عبدوه شفاعة، أو تلويح بها كقول عيسى عليه السلام {وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: 118].

ولما ذكر حال الشـفعاء معهم، ذكر حالهم مع الشـفعاء فقال: {وكانوا} أي كوناً هو في غاية الرسـوخ {بشـركائهم} أي خاصـة {كافرين*} أي متبرئين منهم سـاترين لأن يكونوا اعتقدوهم آلهة وعبدوهم جرياً على عادتهم فيما لا يغنيهم من العناد والبهت.

▲ تفسير الآيات رقم [14- 20]

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)}

ولما كانت النفس ربما تشـوفت إلى أنه هل يكون بعد إبلاسـهم شـيء آخر، قال مفيداً له مهولاً بإعادة ما مضى: {ويوم تقوم الساعة} أي ويا له من يوم، ثم زاد في تهويله بقوله: {يومئذ يتفرقون} أي المؤمنون الذين يفرحون بنصر الله والكافرون فرقة لا اجتماع بعدها، هؤلاء في عليين، وهؤلاء في أسـفل سـافلين. حكى لي بعض القضـاة من أصـحابي- عفا الله عنه- وهو يبكي أنه رأى مناماً مهولاً، وذلك أنه رأى القيامة قد قامت، والناس يحشـرون- على ما وصف في الأحاديث- في صعيد واحد عرايا خائفين حائرين، يموج بعضـهم في بعض، فإذا شـخص مما له أمر قد أشـار بسـوط معه وخط به

في الأرض فقسـمهم قسـمين فقال: هؤلاء مطيعون، وهؤلاء عصـاة، قال: فكنت في العصـاة، وفي الحال غاب عنا الطائعون، فلم تر منهم أحداً ثم خط بذلك السـوط مرة أخرى فقسـمنا قسـمين فقال: هؤلاء عصـاة الأقوال، وهؤلاء عصـاة الأفعال، قال: فكنت في عصـاة الأفعال، ثم غاب في الحال عنا عصـاة الأقوال، فلم نر منهم أحداً وبقينا نحن منا الجالس ومنا المضطجع، ونحن قليل بالنسبة إلى عصاة الأقوال، فبينا نحن كذلك إذ جاء آتٍ إلى شـخص إلى جانبي فأخذه من كعبه ثم نشـطه فأخرج جلده بمرة واحدة كأنه جراب نزع عن شيء فيه يابس، فحصل لي من ذلك ذعر شديد فبينا أنا كذلك إذ آتٍ جاءني من ورائي، فألقى عليّ جوخة فجعلها على أكتافي وأدارها على أفخاذي فسترني بها ولكن على غير هيئة لبس المخيط، قال: واستيقظت وأنا على ذلك فقصصته على بعض الصالحين فقال: أحمد الله على كونك من عصاة الأفعال، وأخذ من ستري بالجوخة على تلك الهيئة أني أحج، فبشـرني بذلك فحججت في ذلك العام- والله تعالى المسـؤول في التوبة، فإنه الفعّال لما يريد {فأما الذين آمنوا} أي أقروا بالإيمان بألسـنتهم {وعملوا} تصديقاً لإقرارهم {الصالحات} أي كلها.

ولما تقدم هنا ذكر عمارة الأرض وإصـلاحها للنبات ووعظ من جعلها أكبر همه بأنها لم تدم له ولا أغنت عنه شـيئاً، ذكر أنه جزى من أعرض عنها بقلبه لاتباع أمره سـبحانه أعظم ما يرى من زهرتها ونضـرتها وبهجتها على سبيل الدوام فقال: {فهم} أي خاصة {في روضة} أي لا أقل منها وهي أرض عظيمة جداً منبسطة واسعة ذات ماء غدق ونبات معجب بهج- هذا أصلها

في اللغة وقال الطبري: ولا تجد أحسن منظراً ولا أطيب نشراً من الرياض. {يحبرون*} أي يسرون على سبيل التجدد كل وقت سروراً تشرق له الوجوه، وتبسم الأفواه، وتزهو العيون، فيظهر حسنها وبهجتها، فتظهر النعمة بظهور آثارها على أسهل الوجوه وأيسرها.

قال الرازي في اللوامع: وأصله- أي الحبرة- في اللغة أثر في حسن، وقال غيره: حبره- إذا سره سروراً تهلل له وجهه، وظهر فيه أثره. {وأما الذين كفروا} أي غطوا ما كشفته أنوار العقول، {وكذبوا} عناداً {بآياتنا} التي لا تصدق منها ولا أضوأ من أنوارها، بما لها من عظمتنا {ولقآءِ الآخرة} الذي لم يدع لبساً في بيانه {فأولئك} أي البعداء البغضاء {في العذاب} أي الكامل لا غيره {محضرون*} من أي محضر كان، بالسوق الحثيث، والزجر العنيف، فإذا وصلوا إلى مقره وكل بهم من يديم كونهم كذلك- لإفادة الجملة الاسمية الدوام، فلا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم.

ولما بين سبحانه المبدأ بخلق السماوات والأرض، والمعاد بالجنة والنار، وأنهم كذبوا به، وكان تكذيبهم به مستلزماً لاعتقاد نقائص كثيرة منها العجز وإخلاف الوعد وترك الحكمة، كان ذلك سبباً لأن ينزه سبحانه نفسه المقدسة ويأمر بتنزيهها، لأن ذلك يدفع عن المنزه مضار الوعيد، ويرفعه إلى مسار الوعد، فقال ذاكراً من أفعاله العالية التي لا مطمع لغيره في القدرة على شيء منها ما يدل على خلاف ذلك الذي يلزم اعتقادهم، لافتاً الكلام عن صيغة العظمة إلى أعظم منها بذكر الاسم الأعظم. {فسبحان الله} أي سبحوا الذي له جميع العظمة بمجامع التسبيح بأن تقولوا هذا القول الذي هو

عَلَمه، فهو منزه عن كل نقص؛ ثم ذكر أوقات التسبيح إشارة إلى ما فيها من التغير الذي هو منزه عنه وإلى ما يتجدد فيها من النعم ووجود الأحوال الدالة على القدرة على الإبداع الدال على البعث، فقال دالاً على الاستغراق بنزع الخافض مقدماً المحو لأنه أدل على البعث الذي النزاع فيه وهو الأصل، لافتاً الكلام إلى الخطاب لأنه أشد تنبيهاً: {حين تمسون} أي أول دخول الليل بإذهاب النهار وتفريق النور، فيعتريكم الملل، ويداخلكم الفتور والكسل، على سبيل التجدد والاستمرار، وأكد الندب إلى التسبيح بإعادة المضاف فقال: {وحين تصبحون*} بتحويل الأمر فتقومون أحياء بعد أن كنتم أمواتاً فتجدون نهاراً قد أضاء بعد ليل كان دجى، فتفعلون ما هو سبحانه منزه عنه من الحركة والسعي في جلب النفع ودفع الضرر، وأرشد السياق إلى أن التقدير: وله الحمد في هذين الجنسين.

ولما ذكر ما يدل على خصوص التنزيه، اتبعه ما يعرف بعموم الكمال، فقال ذاكراً لوقت كمال النهار وكمال الظلام، وتذكيراً بما يحدث عندهما للآدمي من النقص بالفتور والنوم اعتراضاً بين الأوقات للاهتمام بضم التحميد إلى التسبيح: {وله} أي وحده مع النزاهة عن شوائب النقص {الحمد} أي الإحاطة بأوصاف الكمال.

ولما قدم سبحانه أن تنزهه ملأ الأزمان، وكان ذلك مستلزماً لملء الأكوان، وكان إثبات الكمال أبين شرفاً من التنزيه عن النقص، صرح فيه بالقبيلين فقال: {في السماوات} أي الأجرام العالية كلها التي تحريكها- مع أنها من الكبر في حد لا يحيط به إلا هو سبحانه- سبب للإمساء والإصباح وغيرهما

من المنافع {والأرض} التي فيها من المنافع ما يجل عن إحاطتكم به مع أنها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في فلاة، ولولا ذلك لظهر لكم ذلك برؤية ما وراءها هو شأن كل مظل مع كل مقل كما تشاهدون السحاب ونحوه.

ولما خص الإمساء والإصباح، عمّ فقال معبراً بما يدل على الدوام، لأن وقت النوم الدال على النقص أولى بإثبات الكمال فيه: {وعشياً} أي من الزوال إلى الصباح {وحين تظهرون*} أي تدخلون في شدة الحر، وسبحانه الله في ذلك كله، فالآية من الاحتباك: ذكر التسبيح أولاً دليلاً على إرادته ثانياً، والحمد ثانياً دليلاً على إرادته أولاً، ولعل المراد بالإظهار هنا ما هو أعم من وقت الظهر ليكون المراد به من حين يزول اسم الصباح من وقت ارتفاع الشمس إلى أن يحدث اسم المساء، وهو من الظهر إلى الغروب- قاله ابن طريف في كتابه الأفعال ونقله عن الإمام عبد الحق في كتابه الواعي، وذلك حين استبداد النهار فيكون كماله فيما دون ذلك من باب الأولى، وهذا مع هذه الدقائق إشارة إلى الصلوات الخمس، أي سبحوه بالخضوع له بالصلاة في وقت المساء بصلاة العصر والمغرب، وفي وقت الصباح بالصبح، وفي العشى بالعشاء، وفي الإظهار بالظهر، وفي هذا التخريج من الحسن بيان الاهتمام بالصلاة الوسطى، فابتدأ سبحانه بالعصر التي قولها أصح الأقوال، ودخول المغرب في حيزها بطريق التبعية والقصد الثاني، وثنى بالصبح وهي تليها في الأصحيّة وهما القريبتان، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من صلى البردين دخل الجنة»- رواه الشيخان عن أبي

موسى رضي الله عنه، «من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وجبت له الجنة»- أسنده صاحب الفردوس عن عمارة بن روبية رضي الله عنه ورواه مسلم وغيره عنه بلفظ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»- يعني الفجر والعصر «كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال:» إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا لا تفوتنكم «، ثم قرأ {فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} رواه البخاري عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح» يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر «يدخل هنا.

ولما ذكر دلالة على البعث المستلزم للوحدانية مطلق التحويل الذي هو إحياء في المعنى بعد إماتة، أتبعه الإحياء والإماتة حقيقة، صاعداً من ذكر البعث تصريحاً بما كان ألقاه تلويحاً فقال: {يخرج الحي} كالإنسان والطائر {من الميت} كالنطفة والبيضة {ويخرج الميت} كالبيضة والنطفة {من الحي} عكس ذلك {ويحيي الأرض} باخضرار النبات.

ولما كان من الأراضي ما لا ينبت إلا بعد مدة إنزال المطر، ومنها ما ينبت من حين إنزال المطر عقب تحطم ما كان بها من النبات سواء، أسقط الجار هنا تنبيهاً على الأمر الثاني لأنه أدل على القدرة، فهو أنسب لهذا السياق ولمقصود السورة، ولأنه جعل فيه قوة إحيائها على الدوام فقال: {بعد موتها}

ببيســه وتهشــمه. ولما كان التقدير: كذلك يفعل على ســبيل التكرر وأنتم تنظرون، عطف عليه قوله: {وكذلك} أي ومثل فعله هذا الفعل البديع من إخراجه لهذا الحي حساً ومعنى من الميت {تخرجون} بأيسر أمر من الأرض بعد تفرق أجســامكم فيها من التراب الذي كان حياً بحياتكم- هذا على قراءة الجماعة البناء للمفعول. وبناه حمزة والكســائي وابن ذكوان بخلاف عنه للفاعل إشــارة إلى أنهم لقوة تهيئهم لقبول البعث صــاروا كأنهم يخرجون بأنفســهم- روى عبد الله ابن الإمام أحمد في زيادات المســند عن لقيط بن عامر رضــي الله عنه أنه خرج وافداً إلى رســول الله صــلى الله عليه وســلم ومعه صــاحب له يقال له نهيك بن عاصــم بن مالك بن المنتفق رضــي الله عنه، قال: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لانسلاخ رجب، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة فقام في الغداة خطيباً إلى أن قال: «ألا اسمعوا تعيشوا ألا اجلسوا ألا اجلسوا، قال: فجلس الناس فقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول الله! ما عندك من علم الغيب، فضحك لعمر الله وهز رأســه فقال: ضــن ربك بمفاتيح الخمس من الغيب فذكره حتى ذكر البعث قال: فقلت: يا رســول الله، كيف يجمعنا بعد ما تفرقنا الرياح والبلى والســباع؟ قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الأرض أشــرفت عليها وهي مدرة بالية فقلت: لا تحيا أبداً، ثم أرســل ربك عز وجل عليها الســماء فلم تلبث عليك إلا أياماً حتى أشرقت عليها وهي شرفة واحدة، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء كما أنه يجمع نبات الأرض فتخرجون».

ولما كان التقدير : هذا من آيات الله التي تشـــاهدونها كل حين دلالة على بعثكم، عطف عليه التذكير بما هو أصـــعب منه في مجاري العادات فقال: {ومن آياته} أي على قدرته على بعثكم. ولما كان المراد إثبات قدرته سبحانه على بعثهم بعد أن صـاروا تراباً بإيجاده لأصـلهم من تراب يزيد على البعث في الإعجاب بأنه لم يكن له أصـــل في الحياة، وكان فعله لذلك إنما مكان مرة واحدة، قال معبراً بالماضـي: {أن خلقكم} بخلق أبيكم آدم {من تراب} لم يكن له أصل اتصاف ما بحياة.

ولما كان ابتداء الإنسـان من التراب في غاية العجب، أشـار إلى ذلك بأداة البعد فقال: {ثم} أي بعد إخراجكم منه {إذا أنتم بشـر} أي فاجأتم كونكم لكم بشـــرة هي في غاية التماســك والاتصـــال مع اللين عكس ما كان لكم من الوصـف إذا كنتم تراباً، وأسـند الانتشـار إلى المبتدأ المخاطب لا إلى الخبر لأن الخطاب أدل على المراد فقال: {تنتشـرون} أي تبلغون بالنشـر كل مبلغ بالانتقال من مكان إلى مكان مع العقل والنطق، ولم يختم هذه الآية بما ختم بـه مـا بعدهـا دلالـة على أنهـا جـامعـة لجميع الآيـات، ودلالـة على جميع الكمالات، وختم ما بعدها بذلك تنبيهاً على أن الناس أهملوا النظر فيها على وضـــوحها، وكان من حقهم أن يجعلوها نصـــب أعينهم، دلالة على كل ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرســـل، وكذلك أكد في الإخبار إعلاماً بأنهم صاروا لإهمالها في حيز الإنكار.